مشروع إعداد نسخة إلكترونية
لحولية كلية اللغة العربية بالمنوفية
إعداد وتنفيذ
أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد في الكلية

٩

بلاغة الرسول ﷺ كما وصفها الجاحظ

الدكتور
دخيل الله محمد الصحفي
جامعة أم القرى – كلية اللغة العربية
قسم البلاغة والنقد

حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد السادس عشر، مطبعة الأخوة الأشقاء ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

من الصفات التي عرفت للرسول صلّى اللّٰه عليه وآله وسلّم، واشتهر بها بين الناس في الجاهلية والإسلام، فصاحة قوله، وروعة بيانه، وعفة ألفاظه، وجوامع كلمه، وقد كثر الوصافون لروعه البيان النبوي الشريف، من صحابته الكرام ومن الأدباء والنقاد، كما وصفته أم المؤمنين عائشة رضى اللّٰه تعالى عنها.

ومن أدق الوصافين لروعه البيان النبوي الشريف وأطولهم باعا، وأحكمهم عرضًا، وأكثرهم إحاطة، وأذيعهم في الوصف شهرة، هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المتوفي عام ٢٥٥هـ، اللغوي الأديب الناقد الذواقة البليغ الذائع الصيت، فقد كتب فصلًا في وصف البيان النبوي الرفيع، هو- في نفسه- غاية في البلاغة، وتحفة من تحف القول تسير به الركبان.

وقد أثبتنا نص كلامه في صدر هذه الدراسة التي عَنْوَنّا لها بـ:

بلاغة الرسول كما وصفها الجاحظ

ثم قمنا- في إيجاز- بشرح هذا النص البديع، مستمدين العون من اللّٰه، مستأنسين بما قاله العلماء فيه وأتبعناه بطائفة من أقواله الموجزة صلّى اللّٰه عليه وآله وسلّم- موضحين ما فيها من حكمة القول، وبلاغة البيان.

بلاغة الرسول كما وصفها الجاحظ

قال الجاحظ فى وصف بلاغة الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: «وهو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف، وكان كما قال اللّه تبارك وتعالى قل يا محمد ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التعقيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الحوشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حفّ بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهو الكلام الذي القى اللّه عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يَبُذُّ الخطب الطوال بالكلم القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة و ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يُسهب ولا يحضر. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعمّ نفعًا، ولا أقصر لفظًا، ولا اعدل وزنا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى ولا أبين في فَحْوَى، من كلامه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم كثيرا»(١).

شرح النّصِّ وتحليله:

إن المتأمل لكلام الجاحظ في وصف بلاغة النبى صلّى اللّه عليه وآله وسلّم يجده يدور على المحاور الآتية:

أولًا: كثرة المعاني وقلة عدد الحروف، مع هجر الغريب الوحشي والسوقي المبتذل.

ثانيًا: الطبع والبعد عن التصنع والتكلف.

ثالثًا: قوة الإقناع بالحق والصدق وبما يعرفه المخاطب، ليكون أبلغ وأقوى في الإقناع.

وسوف أتناول هذا النص فقرة فقرة بالشرح والتحليل مستعينًا في ذلك بآراء العلماء ما أمكن.

قوله: «هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه»

هذا الكلام بيان لما بني عليه كلامه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، وهو كناية عن الإيجاز فقلة عدد الحروف وكثرة عدد المعاني لا يكون إلا في الكلام الجامع، وقد قال صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وهو على المنبر: «**يا أيها الناس إني قد أعطيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لي اختصارًا، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية**»[٢].

فجوامع الكلم «عبارات موجزة حكيمة تتضمن كل عبارة منها معاني كثيرة مع الوفاء بالمعنى الذي تضمنته، والإيجاز أبرز سمات البلاغة العربية»[٣]، وبه فاقت العربية غيرها من اللغات.

ومن تعاريف الإيجاز ما قاله إبراهيم النظام حين سئل عن الاختصار فقال: «**الذي اختصاره فساد**»[٤].

وقد عد الرافعي الإيجاز مما امتازت به بلاغة النبوة فقال: «**وأما القصد والإيجاز والاختصار.. فذلك ما امتازت به البلاغة النبوية حتى كأن الكلام لا يعدو فيها حركة النفس، وكأن الجملة تخلق في منطقه صلّى اللَّه عليه وآله وسلّم خلقًا سويًا أو هي تنزّع من نفسه انتزاعًا**»(٥).

وهنا أشير إلى أمر مهم وهو أن المعهود مقابلة المعاني بالألفاظ وهنا وفي وصف الجاحظ جئ بالحروف «وقلة عدد حروفه» وذلك للمبالغة في وصف كلامه صلّى اللَّه عليه وآله وسلّم بالإيجاز فليست الألفاظ فحسب هي القليلة بل حروف تلك الألفاظ أيضًا، وكأن الجاحظ يريد أن يقول إن النبي صلّى اللَّه عليه وآله وسلّم قد بلغ كلامه غاية الإيجاز فليست ألفاظه قليلة فقط بل أيضًا حروف تلك الألفاظ القليلة المتضمنة للمعاني الكثيرة.

ومن أولى منه بالفصاحة أو أحق بالإيجاز؟ وقد قال: «**أعطيت جوامع الكلم**» وقد وصلت جملة «كثر عدد معانيه» بسابقتها، وهي «قل عدد حروفه» للتوسط بين الكمالين لأنهما خبريتان لفظًا ومعنى.

قوله: «وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف»

يشير إلى بناء كلامه صلّى اللَّه عليه وآله وسلّم على الفطرة والسليقة وأنه يكون عفو الخاطر وأنه ليس فيه مراجعة ولا تكلف ولا تقعّر ولا تشدق ولا تفيهق، قال صلّى اللَّه عليه وآله وسلّم: «**أبغضكم إليّ الثرثارون المتفيهقون**» يقول العقاد: «كان جمال فصاحته صلّى اللَّه عليه وآله وسلّم في نطقه كجمال فصاحته في

كلامه » وخير من وصفه بذلك عائشة أم المؤمنين رضي اللَّه عنها حيث قالت : « ما كان رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه وآله وسلّم يسرد كسردكم هذا ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصل يحفظه من جلس إليه » وقالت رضي اللَّه عنها : « كان رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه وآله وسلّم يحدث حديثًا لو عده العاد لأحصاه »(٦) .

فليست فصاحته صلّى اللَّه عليه وآله وسلّم فصاحة ألفاظ أو فصاحة لغة وإنما هي فصاحة معنى يأتيه الكلام صلّى اللَّه عليه وآله وسلّم سهلًا رهوًا يجري على لسانه سهلًا رسلًا « لا يضطرب به الضعف ولا تزايله الحكمة ولا تخذله روية ولا يباينه الصواب بل يخرج ، رصينا غير متهافت ، متسقًا غير متفاوت ، ولا يغلب على النفس التي خرج منها ، بل تغلب عليه ولا تسترسل به المخيلة بل يضبطه العقل ولا يتوثب به الهاجس بل يحكمه الرأي ، ولا يتدافع من جهاته ولا يتعارض من جوانبه ، بل تراه على استواء واحد في شدة وقوة واندفاع وتوفيق »(٧) ، وقد نزه صلّى اللَّه عليه وآله وسلّم عن التكلف في القول والفعل كما قال سبحانه : ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾(٨) .

والتكلف كما يقول العسكري هو : « طلب الشئ بصعوبة للجهل بطريق طلبه بالسهولة ... فالكلام إذا جمع وطلب بتعب وجهد وتنولت ألفاظه من بعد فهو متكلف »(٩) ، وكلام رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه وآله وسلّم : « لا كلفة فيه ولا معاناه فطريقته إما فطرته اللغوية وسليقته البيانية ، شأنه في هذا شأن فصحاء العرب من قومه ، وإما الإلهام من اللَّه الذي ضمن له بيان القرآن »(١٠) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(١١) .

وهنا قد يقول قائل: إن في قول الجاحظ السابق تكرارًا فقوله: «جل عن الصنعة» «ونزه عن التكلف» كلاهما بمعنى واحد، والذي يبدو لنا والله أعلم- أنه لا تكرار في هذا فالأول معناه أنه سهل واضح لا غموض فيه، وقوله نزه عن التكلف» أي جار مع الطبع لا تكلف فيه، والكلام الذي لزم «سجية الطبع، أمكن في العقول. وأبعد عن القلق، وأوضح للمراد، وأفضل عند ذوي التحصيل، وأسلم من التفاوت، وأكشف عن الأغراض،... وأبعد عن التعمل الذي هو ضرب من الخداع بالتزويق»[١٢].

وقد وصلت جملة «جل عن الصنعة» وهي خبرية لفظًا ومعنى بجملة «ونزه عن التكلف» وهي كذلك خبرية لفظًا ومعنى للتوسط بين الكمالين.

قوله: «واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر»

يشير إلى مراعاته صلّى الله عليه وآله وسلّم لأحوال المخاطبين وأنه صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يتعرف على أحوال مخاطبيه وأقدار المعاني التي يقولونها والآداب التي يزجيها لهم ويسوقها صلّى الله عليه وآله وسلّم فمنها ما يحتاج إلى بسط وشرح ومنها ما يكون اختصارًا وإيجازًا كل حسب مقامه وقد روي عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم قوله: «**أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم**» وقد قال العلماء في مراعاة مقتضى الحال: «لكل مقام مقال، فلا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، لأن هذا جهل بالمقامات، بل الواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات

الناس فيخاطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه»[١٣]، وهذه هي البلاغة التي جاءت في كلامه صلّى الله عليه وآله وسلّم.

وقد تحدث القرآن ودل على هذه البلاغة في مناسبة تتطلب غاية التأثير وبليغ البيان لتحويل الناس من إنحرافهم ونفاقهم وإعوجاجهم إلى جادة الاستقامة والإخلاص كما في قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[١٤].

قال صاحب المنار في تعليقه على هذه الآية: «وهذه الآية شهادة للنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بالقدرة على الكلام البليغ، وتفويض أمر الوعظ والقول البليغ إليه؛ لأن الكلام يختلف تأثيره باختلاف أفهام المخاطبين، وهي شهادة له بالحكمة ووضع الكلام في موضعه، وهذا يعني إيتاء الله تعالى نبيه داود الحكمة وفصل الخطاب، وما أوتي نبي فضيلة إلا أوتي مثلها خاتم النبيين صلّى الله عليه وآله وسلّم وعليهم أجمعين»[١٥].

قوله: «وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي»

هذا وصف للغة والألفاظ الجارية في منطقه صلّى الله عليه وآله وسلّم وأنها من الكلمات الواضحة العالية، فلم تكن ألفاظه موغلة في الغرابة والوحشية، ينفر منها الذوق، وتعلو بغرابتها عن العامة، ولا هي مبتذلة سوقية يستهجنها الخاصة، ويتعففون عنها، وإنما هي وسط لا ينكرها الخاصة، ولا تستعلي على العامة، ومن صفات السوقة هذه الهجنة «وهي العيب والقبح» التي تنأى بها عن صفاء الفصحى، وخلوها من الشوب.

يقول الرافعي في قولهم: «ما رأينا الذي هو أفصح منك»، فتأمل قولهم ما رأينا الذي هو أفصح منك، فإن تعبيرهم بـ «الذي» يدل على تمكن هذا الاعتقاد منهم وأنهم يخبرون عن نظر ومعرفة واستقصاء، وأنه ليس في جميعهم واحد يقال له «الذي» والرواة وعلماء اللغة والبلاغة جميعًا على أنه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم أفصح العرب، وأنه ما جاءهم عن أحد من بلغاء العرب من روائع الكلم مثل ما جاءهم عنه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم»(١٦).

وهذه الفصاحة ـ فصاحة رسول اللّه - التي فاقت فصاحات العرب حتى أصبح أفصح العرب على الإطلاق هي فصاحة في خيوط نسيجها خيط، لا يفسره شئ مما يدخل في تفسير فصاحة البشر، وإنما يفسره شئ واحد: أن يرد إلى تدبير فوق التدابير، تدبير من يقول للشئ كن فيكون».

في أثر مروي: «أن أبا بكر رضي اللّه عنه - قال: يا رسول اللّه: نحن بنو أب واحد ونراك تكلم الوفود بما لا نفهم أكثره فمن أدبك؟ قال: أدبني ربي فأحسن تأديبي، وربيت في بني سعد».

«**أدبني ربي فأحسن تأديبي**»: ذاك هو التفسير لهذه المفارقة، التي بها فاقت فصاحة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم فصاحات البشر حتى أصبح أفصح العرب على الإطلاق، وهذا مما يدخل تحت قول ربنا في شأن موسى ﴿**ولتصنع على عيني**﴾.

وكل رسل اللّه صنعوا على عينه، وبعنايته، وتدبيره، فأمر كلًا منهم، بما يهيئه لأداء مهمته على أكمل وجه وأتمه سبحانه»(١٧).

وقد وصل بين الجملتين لأن الجملة الأولى «وهجر الغريب ..» جملة خبرية لفظًا ومعنًى، والثانية كذلك خبرية لفظًا ومعنًى فوصلت للتوسط بين الكمالين.

قوله: «فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته».

هذا النص يشير إلى الأمر الإلهي الذي في كلامه صلّى الله عليه وآله وسلّم فهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، يقول الشافعي: «كل ما نطق به رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فإنما هو فهم، فهمه من كتاب الله تعالى»(١٨).

وميراث الحكمة: النبوة التي كان صلّى الله عليه وآله وسلّم وارثها عن الأنبياء عليهم السلام الذين سبقوه وهو خاتمهم، ووصف الجاحظ هذا من قصر الموصوف على الصفة.

وحف كلامه بالعصمة – معناه: صحة معانيه وبعدها عن الخطأ والزلل، فكلامه معصوم صلّى الله عليه وآله وسلّم لأنه وحي يوحى، فيما يبلغ فيه عن ربه، فهو في هذا معصوم من الزلل، منزه عن الخطأ، ولو كان من إرشاد البشر لكان فيه صواب وخطأ لأن كل بشري يؤخذ من قوله ويترك إلا كلامه صلّى الله عليه وآله وسلّم لإنه يصدر عن محض الصدق ومعدن الحق.

وقول الجاحظ: «ولم يتكلم إلا بكلام ..» هو من قصر الموصوف على الصفة، وفي قوله حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، استعارتان مكنيتان.

ومعنى يسر بالتوفيق أي أن الله تعالى وفقه إليه، وأعانه عليه ومن ثم يسر له ألفاظه ومعانيه، وتميز بما تميزت به فصاحته وبيانه، ولولا هذا التوفيق الرباني ما جمعت له كل هذه المزايا في ألفاظه ومعانيه، وفي قوة تأثيره على سامعيه، وانجذابهم له، ومن نتائج تيسيره أننا نفهم كلامه عند مدارسته لأول مرة ويسهل علينا حفظه وهو أيسر علينا من كلام البلغاء والشعراء كطرفة بن العبد وامرئ القيس وأضرابهما.

وفي قوله: «يسر بالتوفيق» كناية عن صفة القبول، وفي قوله: «ولم يتكلم إلا بكلام.. إلى قوله «ويسر بالتوفيق» توسط بين الكمالين لأن الجمل متفقة في الخبرية لفظًا ومعنًى.

ومعنى ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول:

زيادة في تفسيره فهو ليس سهلًا فحسب وإنما هو أنيس إلى النفس وحبيب إليها لما فيها من آداب توافق فطرة هذه النفس تؤدبها وتربيها وتأخذ بيدها إلى مدارج الرقي الأخلاقي والهدف الرباني وفي كلا الوصفين ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول استعارة بالكناية.

قوله: «وجمع له بين المهابة والحلاوة»

يشير الجاحظ هنا إلى ما يتميز به كلامه صلّى الله عليه وآله وسلّم، وما يختلف به عن كلام الناس وهو أنه يجمع بين صفات

قلما تجتمع في كلام غيره صلّى اللّه عليه وآله وسلّم مثل المهابة والحلاوة والإفهام، وقلة عدد الكلام، والطباق بين المهابة والحلاوة جمع نادر لأن المهابة مقرونة بالخوف والحلاوة مقرونة بالحب والإلف، ولعل المهابة مما ينذر به والحلاوة مما يبشر به.

فالمهابة تقتضي الفخامة والجزالة والرصانة ولكنها جاءت في كلامه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم مع الحلاوة، والإفهام يقتضي الإطالة والتفصيل الواسع والإطناب ولكنه جاء في كلامه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم مع قلة عدد الكلام الذي هو كناية عن الإيجاز بالحذف، قوله: «مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته» كنايتان عن الوضوح وفيها تأكيد لمعنى الإفهام لأن المتكلم يستغني عن الإعادة إذا كان واضح الدلالة على معانيه، والسامع يستغني عن المعاودة إذا كان المعنى قد اتضح وضوحًا لا يشك فيه، ووصل الجملتين للتوسط بين الكمالين لأنهما خبريتان لفظًا ومعنًى.

قوله: «لم تسقط له كلمة»

أي إن كلامه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم صائب كله وهو الذي سلم في كلام البشر قاطبة من أن يقال فيه لقد قال كذا ولو قال كذا لكان أفضل، فإنه ما من شاعر ولا خطيب ولا صاحب بيان إلا وقد جاء في كلامه ما يقال فيه لقد قال كذا ولو كان كذا لكان أجود ولذلك قالوا لكل جواد كبوة ولكل حسام نبوة ولكل عالم غفلة وكان صلّى اللّه عليه وآله وسلّم الجواد الذي لا كبوة فيه والحسام الذي لا نبوة فيه والعالم الذي لا غفلة له.

قوله : « ولا زلت به قدم »

أي لم يفسد له معنى ولم يوجه أمته إلى شئ ثم أظهرت الأزمنة والأمكنة واختلاف الحضارات فساد هذا التوجيه الذي وجههم إليه وإنما كان كلامه صوابًا كله وتوجيهه خيرًا كله ، هذا ولم يقع في كلام غير الأنبياء اطراد الصواب ، لأن الفلاسفة والحكماء والمصلحين وكل العقليات الكبيرة في تاريخ البشرية المقطوعة عن الوحي أصابت في شئ وأخطأت في شئ وإنما كان تفاضلهم في قلة الأخطاء وكثرتها ، ولم يخل أحد من خطأ بخلاف الأنبياء وهذا هو الفرق بين الآداب الموصولة من السماء والآداب المقطوعة عن الوحي .

وفي قوله : « زلت به قدم » كناية ، فإنه يقال في الكناية عند نزول الشر وامتحان المرء[١٩] : زلت به القدم ، ويقال أيضًا : زلت النعل به ، وهو هنا كناية عن سداد رأيه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم .

قوله : « ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب »

هذه العبارة تدور حول قوة حجته وصحة منطقه وسداد رأيه وأن الحق معه دائمًا يزهق به باطل خصمه ويغلبه ، ولم يغلب حقه باطل ولا ضعف منطقه في مواجهة الخصم .. ولم يورد التاريخ شيئًا من ذلك وكان قومه أصحاب فصاحة وأصحاب بيان وكان فيهم لدادة قال تعالى : ﴿لِتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾[٢٠] ، ومع هذا لم يرتفع على منطقه منطق ولا على حجته حجة .

مع ملاحظة قوله: «لم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب» لا تكرار بينهما فالأول بمعنى أنه لم يتجرأ عليه أحد، وأما الثاني فبمعنى أنه لم يغلبه أحد وكلاهما كناية عن الغلبة.

ثم إن في قوله: «ولا بارت له حجة» استعارة لأن الحجة وهي الدليل والبرهان لا توصف بالبوار، لأن أصل معنى البوار: الكساد أو الهلاك، فاستعير هذا للفساد وعدم التأثير(٢١)، وهي استعارة بالكناية.

وكأن الجاحظ هنا متأثر بأسلوب القرآن الكريم فقد وردت في قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ وفي قوله أيضًا: «**يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ**﴾(٢٢).

قوله: «ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة ولا يهمز ولا يلمز».

هذا وصف لبيان أدب الاحتجاج وآداب الخلاف في كلامه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وأنه يلتزم بالصدق والحق وحسن الأدب ويتجه إلى توضيح الحجة وتجليتها حتى تظهر للخصم كفلق الصبح لإنه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم أتى الناس بالحنيفية البيضاء فقال: «أتيتكم بها بيضاء نقية».

فليس في حاجة إلى تزييف ولا إلى تضليل، لإن الذين يلجئون إلى التزييف والتضليل ويخالفون آداب المناظرة هم الذين لا ينتصرون لحق وإنما ينتصرون لباطل، أما أهل الحق فليس التدليس والتزييف والغلبة بالباطل من منطقهم ولا أسلوبهم.

تأمل كلام الجاحظ مرة أخرى تجد فيه إقناع الخصم حتى يسكت هذا الخصم عن اقتناع وهذا غاية الصواب وتجد فيه رفض الاحتجاج بالباطل ورفض التلبيس والتدليس، وإنما الصدق هو أول الطريق وهو وسط الطريق وهو آخر الطريق وهو الطريق كله.

وتجد فيه أن الفلج الذي هو الغلبة والذي هو غاية الخصم إذا كان يقطع الناس الطريق إليه بأي وسيلة من الوسائل بالحق أو بالباطل، وإذا كانوا يقولون إن الغاية تبرر الوسيلة، فإن مذهب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم خلاف ذلك فهو لا يطلب الغلبة إلا بالحق ولا ينتهز فرصة من يخاصمه فيزيف عليه أو يدلس، وإنما ينتهز فرصة من يخاصمه فيزيف عليه أو يدلس، وإنما الحق في منطقه وليس في منطقه إلا هو ولا يقبل أن يغلب إلا به لأنه يدعو الناس إلى الله وإلى كلام الله، وكلام الله بالحق أنزله وبالحق نزل، فما كانت غايته الحق فليس من وسيلة غير الحق والصدق.

وللرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم قدرة على إسكات من يجاذبه الرأي، أو يراجعه القول، بالحق، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها ما يلى:

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة قال: أليس الذي أمشاه على رجلين في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ قال قتادة: بلى وعزة ربنا(٢٣).

فقول قتادة: «بل وعزة ربنا» دليل على الاقتناع التام بجواب النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم.

* جاء في صحيح البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة جاءت إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقالت: «إن أمي نذرت أن تحج فماتت قبل أن تحج أفأحج عنها؟ قال: نعم، فحجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ قالت: نعم قال: اقضوا الله فإن الله أحق بالوفاء[٢٤].

وفي رواية مسلم «أن امرأة أتت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر فقال: أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه؟ قالت: نعم. قال: فدين الله أحق بالقضاء[٢٥].

*لما قال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لا عدوى ولا صفر ولا هامة قال أعرابي: يا رسول الله فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيجيئ البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها، قال: فمن أعدى الأول؟

كذلك يرفض الخلابة وسحر البيان وأن يغلب بها كما يرفض المواربة وهي الطريق الملتوي وإنما شأنه الحق وشأنه الصدق، وهو واثق من الحق الذي جاء به وواثق من الصدق الذي هو عليه، ومن كان كذلك فلا يستعمل غير الحجة الواضحة والطريق الواضح.

ولا يهمز ولا يلمز:

أي لا ينقل الحديث من القضية إلى الحديث عن الأشخاص فيجرح الأشخاص كما هو الشأن في أهل الباطل الذين يتركون الاحتجاج حول قضاياهم الأساسية، والحوار حولها إلى تجريح من

يحاجون ويخاصمون، تأمل نص الجاحظ مرة أخرى تجد فيه الطباق عند قوله بل يبُذُ الخطب الطوال بالكلم القصار.

أما قوله: «لا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج إلا بالحق»

فليس من باب التكرار لأن الأول كما قلنا إن كلامه كله صدق ومعنى الثاني أن يستعمل الصدق في مواضعه المناسبة فلا يورد كل صدق في كل مقام، بل لكل صدق مقامه وهذا هو الحق.

ثم نلاحظ أسلوب القصر الذي جاء بطريق النفي والاستثناء في قوله: «فلم ينطق إلا عن ميراث الحكمة». إلى قوله: «ولا يطلب الفلج إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة».

يقول أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى معلقًا على أساليب القصر المتتابعة: «النفي في كل ذلك شامل لكل ما عدا المذكور فالرسول عليه الصلاة والسلام لم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم أبدًا إلا بكلام حف بالعصمة، ولم يلتمس إسكات الخصم في حال من الأحوال إلا بما يذكره الخصم، ولم يحتج في موقف من المواقف إلا بالصدق، ولم يطلب الفلج والغلبة إلا بوسيلة واحدة هي الحق.

القصر هنا قصر حقيقي لإن المراد إثبات النطق لما يكون عن ميراث حكمة ونفيه عن كل ما سواه، وإثبات الكلام للكلام المحفوف بالعصمة، ونفي كل ما عدا ذلك ... والتعميم في النفي هو أصل قوة هذه الأوصاف ومعدن صدقها»(٢٦).

أما قوله: ولا يبطئ ولا يعجل

ففيه طباق وكناية عن الاعتدال وهو وصف لطريقة حديثة صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وهو وصف جليل علينا أن نحاول نحن معشر المعلمين تطبيقه لأن النبوة كانت علمًا وتعليمًا ونحن ورثة الأنبياء لأننا أخذنا ميراثهم وهو حمل أمانة العلم وتبليغه.

فيكون قولنا وخطابنا لطلابنا خطابًا هادئًا يصل إلى قلوبهم وعقولهم، وقد وصفت كلامه السيدة عائشة رضي اللّه عنها بقولها: «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم لم يكن يسرد الحديث كسردكم، كان يحدث حديثًا لو عده العاد لأحصاه».

أي: «لم يكن حديث النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم متتابعًا، بحيث يأتي بعضه إثر بعض فيلتبس على المستمع، بل كان يفصل بين كلامين بحيث لو أراد المستمع عده لأمكنه، فيتكلم بكلام واضح مفهوم في غاية الوضوح والبيان»(٢٧).

قوله: «ولا يسهب ولا يختصر»

أي أنه لا يطيل حتى يمل، ولا يوجز حتى يخل، ففيهما طباق وكنايتان عن الإيجاز وعدم التوقف عن الحديث إعياء.

قوله: ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا، ولا اقصر لفظًا ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى من كلامه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم».

فقوله: «أعم نفعًا» كناية عن الهداية إلى كل خير وفيه إشارة إلى ما يتضمنه كلامه من آداب دالة على مكارم الأخلاق وحسن سلوك دالة أيضًا على تزكية النفس الإنسانية وكمالها.

وقوله: «ولا أقصر لفظًا» كناية عن الاعتدال في كلامه، وهو وصف للبناء اللغوي في كلامه صلّى اللَّه عليه وآله وسلّم، وهو رجوع إلى ما قاله أولًا من قلة عدد الحروف وكثرة عدد المعاني، وهي تعني أيضًا الاعتدال في قلة الألفاظ وكثرة معانيها.

وقوله: «ولا أعدل وزنًا» وهو كناية أيضًا عن سهولة في السمع وهو وصف لما يجري في منطقه من عذوبة النغم والتناسق اللفظي وجمال الإيقاع.

وقوله: «ولا أكرم مطلبًا» أي أن لغته وكلامه بني على المعنى الشريف واللفظ العفيف فإذا أردت كريم الألفاظ فأطلبها في كلامه وإذا أردت كرائم المعاني فأطلبها في كلامه صلّى اللَّه عليه وآله وسلّم.

وقوله: «ولا أحسن موقعًا» كناية عن تأثير كلامه في العقول وفي نفس من يتلقاه فهو يقع في النفس أحسن موقع لأنه أحسن اللفظ يحمل أجمل معنى ولا تتلقى النفوس كلامًا أكرم منه يربيها أحسن تربية ويزكيها أحسن تزكية.

وقوله: «ولا أسهل مخرجا» كناية عن فصاحة ألفاظه وصفاتها وفيه إشارة إلى سهولة حفظ كلامه وترداده، وأن من يكرره ليحفظه ويفهمه إنما يكرر كلاما سهلًا رهوًا عذبًا تسهل مخارجه ويستعذب اللسان النطق به.

في فصاحة الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم

يذكر الجاحظ أن من مظاهر فصاحته صلّى اللّه عليه وآله وسلّم قدرته على ابتكار صيغ وتراكيب في اللغة لم يسبقه أحد إليها[٢٨].

فأول مظهر من مظاهر فصاحته صلّى اللّه عليه وآله وسلّم هي إيجاد صيغ جديدة غير مسبوق إليها.

والقدرة على الابتداع هي مما يقاس بها فصاحة الفصيح وبها يعرف، وقد ذكر العلماء أن بعض الشعراء قد سبقوا إلى معان ثم لم يلحقوا بها فقد قالوا في فضل فصاحة امرئ القيس أنه أول من قيد الأوابد وشبه النساء بالبيض حين قال:

وقد أغتدى والطير في وكناتها   بمنجرد قيد الأوابد هيكل
وبيضة خدر لا يرام خباؤها   تمتعت من لهم بها غير معجل

وقد ذكر ابن المعتز «ثلاثة من الشعراء» ذكروا الليل بمعان مختلفة لم يسبقوا إليها النابغة حيث يقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وبشار حيث يقول:

لم يطل ليلي ولكن لم أنم   ونفى عني الكرى طيف ألم

وخالد بن يزيد حيث يقول:

رقدت ولم ترث للساهر وليلُ المحبّ بلا آخر[٢٩]

ومما ذكر أيضًا في فضل ابتداء المعاني قول صاحب «الأغاني» في أبي العتاهية حيث يقول: «قال لي أبو تمام: لأبي العتاهية خمسة أبيات ما شركه فيها أحد ولا قدر على مثلها متقدم أو متأخر، وهو قوله:

النـاس فـي غـفـلاتـهـم ورحـى المنيـة تـطـحـن

وقوله لأحمد بن يوسف:

ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

وقوله في موسى الهادي:

ولما استقلوا بأثقالهم وقد أزمعوا للذي أزمعوا

قرنت التفاني بآثارهم وأتبعتهم مقلة تدمع

وقوله:

هب الدنيا تصير إليك عفوا أليس مصير ذاك إلى زوال[٣٠]

وقد ذكر الأمدي أن قول البحتري:

أرسوم دار أم سطور كتاب درست بشاشتها على الأحقاب

«من الابتداءات النادرة العجيبة المشبهة لكلام الأوائل»[٣١].

قلت: إذا كان العلماء يعدون لامرئ القيس أو غيره من الشعراء صيغة أو صيغتين عرف بها وفاق غيره، وسبق بها، فإنه لم يعرف في تاريخ العربية أحد أضاف إليها من الصيغ والتراكيب كما أضاف إليها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، بل إننا حين ندرس ما اخترعه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، وما ابتدعه الشعراء

سنجد أن الفرق كبيرٌ فليست الأهمية فقط في السبق والإيجاد ولكنَّ الأهمية في قيمة هذا السبق، وسوف أتناول شيئًا يسيرًا مما اخترعه صلّى اللّٰه عليه وآله وسلّم بالدرس والتحليل مستعينًا في ذلك بآراء علمائنا الأوائل، رحمهم اللّٰه، فمن ذلك:

قوله: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»(٣٢)

ذكر العلماء أن سبب الحديث هو أنه صلّى اللّٰه عليه وآله وسلّم أسر أبا عزة الشاعر الجمحي يوم بدر فمنّ عليه وعاهده ألا يحرّض عليه ولا يهجوه فأطلقه ولحق بقومه، ثم رجع إلى التحريض والهجاء ثم أسر يوم أحد فسأله المنّ فقال صلّى اللّٰه عليه وآله وسلّم: **«لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»**(٣٣).

قوله: «لا يلدغ... لا» إما أن تكون نافية، وإما أن تكون ناهية، وعليه يكون الكلام إما خبرًا فيكون المراد هو «أن المؤمن الممدوح هو المتيقظ الحازم الذي لا يؤتي من ناحية الغفلة، فيخدع مرة بعد أخرى، ولا يفطن هو به، وإما أن يكون الكلام إنشاءًا على النهي أي «لا يخدع المؤمن ولا يؤتين من ناحية الغفلة فيقع في مكروه».

فإذا كانت كذلك أي «ناهية» فقد علم أن النهي يكون في مواقف تقتضي الغضب والوقوف بثبات في مواجهة مثل هذه الأمور وألا ينخدع في مثل هذه المواقف.

وللطيبي رحمه اللّٰه كلام قيم حول هذه المسألة، وفيه قولان:

«إذا ذهب إلى النهي خيل أنه صلوات اللّٰه عليه وسلامه لما رأى من نفسه الزكية الميل إلى الحلم والعفو عنه، جرد منها مؤمنا كاملًا

حازمًا ذا شهامة، ونهاه عن ذلك تأنيبًا، يعني ليس من شيمة المؤمن الحازم الذي يغضب لله، ويذبّ عن دين الله أن ينخدع في مثل هذا الموقف الغادر المتمرد مرة بعد أخرى، فانته عن حديث الحلم وأمض لسانك في الانتقام منه والانتصار من عدو الله فإن مقام التجربة والغضب لن يأبى الحلم والعفو. وإلى هذا المقام ينظر قوله صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: «الحليم ذو عشرة، والحكيم ذو تجربة» وأنشد النابغة في هذا المعنى:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له
بوادر تحمي صفوه أن يكدّرا
ولا خير في أمر إذا لم يكن له حكيم إذا ما أورد الأمر أصدرا

ومن أوصافه صلوات اللّه عليه وآله وسلّم ما روت أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق «ما انتقم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلّم لنفسه في شئ قط إلا أن تنتهك حرمة اللّه فينتقم للّه بها».

فظهر من هذا أن الحلم مطلقا غير محمود كما أن الجود كذلك، قال أبو الطيب:

فوضع الندى في موضع السيف بالعلى
مضر كوضع السيف في موضع الندى

وفهم منه أن هناك مقامًا التحلم والتساهل فيه محمود بل مندوب إليه. وذلك مع المؤمنين من استعمال العفو والحلم وخفض الجناح، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ فيجتمع لهم لين الجانب مع الأولياء والغلظة مع الأعداء، قال اللّه تعالى:

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم﴾ ، ﴿أَذِلَّة عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّة عَلَى الكَافِرِينَ﴾ قال الشاعر :

حليم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم في عين العدو مهيب

وإذا ذهب إلى مجرد الإخبار لم يكن هذا التأنيب والتعبير ، فلم يفهم منه أن التحلم والتساهل في بعض المواضع مندوب إليه ، وأن الانتقام والانتصار من أعداء الدين مأمور به ، فظهر من هذا القول بالنهي أولى والمقام له أدعى »(٣٤) .

وإنما نقلت هذا النص لأنه كلام نفيس وجيد ينبغي الحرص عليه وفهمه .

وفي الحديث إستعارة تمثيلية حين شبهت هيئة من أصيب بما آذاه وآلمه من جهة من الجهات فلم يحتط ويتوق هذه الجهة ويأخذ حذره منها فأصيب بما يؤلمه ويؤذيه مرة أخرى ، بهيئة من لدغته حية أو عقرب من جحر فلم يحترس من هذا الجحر ويتجنب الاقتراب منها فلدغ منه مرة أخرى . بجامع ترك الحيطة والحذر من الوقوع فيما يؤذي مما يؤدي إلى الإصابة مرة أخرى .

وفي قوله « جحر » مجاز مرسل حيث أطلق المحل وأراد الحال ، والحديث عده ابن أبي الأصبع من باب سلامة الاختراع(٣٥) .

قوله : « يا خيل الله اركبي »(٣٦)

أي يا جند الله والابتكار هنا هو أنه خاطب الخيل وأراد الفرسان يا جنود الله اركبوا خيلكم .

وفي إطلاق الخيل على الرجال مجاز علاقته الملازمة ، وكأنه يشير بذلك إلى ملازمتهم لغزو الخيل في سبيل الله وكأنهم جزء من

الخيل أو كالشئ الواحد ولما كانت الخيل إنما تكون للغارة الظالمة أو للصيد أو لأماكن اللهو فقد أراد بالعبارة الشريفة أن تخرج عن كل هذا الذي سبق بإضافتها إلى الله، يا خيل الله للإشارة إلى أنها خيل تسعى في سبيل الله، وفي إعلاء كلمته وإحقاق الحق لتكون كلمة الله هي العليا، وهذا احتراس بلاغي رائع ولو كانت الإغارة من ظالم أو لَاهٍ أو كان خارجًا لأماكن الصيد فإنه لا يشملها التشريف الذي أضيفت فيه الخيل إلى اسم الجلالة «الله» ولتخرج عن هذه الدائرة.

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه قول ابن الأنباري عند قول عنترة:

هلَّا سألت الخيل يا ابنة مالك ... إن كنت جاهلة بما لم تَعْلمي

«وقوله: «سألت الخيل» معناه: ركاب الخيل. فحذف الركاب وأقام الخيل مقامهم. يقال: «يا خيل الله اركبي» على معنى: يا أصحاب خيل الله اركبوا. فحذف الأصحاب وصرف الفِعْلَ إلى الخيل فقال: اركبي ولم يقل اركبوا»(٣٧).

قوله: «أخاف أن تصف حجم عظامهم»

قاله صلى الله عليه وآله وسلّم عندما أعطى أسامة بن زيد حلّة قُبطية، فأعطاها أسامة لامرأته فقال: «أخاف أن تصف حجم عظامها» يريد أن هذه الحلة تلتصق بالجسم فتتّضح ثُديُّها وعظامها فيعرف من يراها مقادير أعضائها وبالنظر في هذا الحديث نلحظ ما يلي:

أولًا: قال أخاف ولم يقل «أخشى» مثلا والذي يبدو لي والله أعلم - إن قوله أخاف توقع شئ مخوف فكأن وصف القبطية

لعظامها أمر مخوف وكأن سفور محاسن المرأة شئ مخيف أيضًا وهو هكذا يهلك النفوس والمجتمعات، بل هي ضارة مهلكة، وفيه إشارة إلى أن المرأة إذا خلعت ثياب الحشمة والحجاب فإنما هي شئ مهلك كالعدو المخوف. أما الخشية فهي: الخوف مع تعظيم المخوف والشعور بخطره، والمناسب ما جاء في الجملة وهو أخاف.

ثانيًا: قال: «تصف» حيث أسند فعل الوصف إلى ضمير الثوب لإنه يلابسه ملابسة السبب، فالذي يستحق الإسناد إليه هو الإنسان يلاحظ مثل هذه الأوصاف المرئية بسبب التصاق الثوب بالجسم فيكشف عما استتر من مفاتن المرأة لرقته فكأنه صلى الله عليه وآله وسلّم: «يقول» أخاف أن يصف الواصف عظامها بلبس القبطية(٣٨).

ثالثًا: قال عظامها ولم يقل أعضاءها، حيث أطلق العظام وأراد الجسم في حجمه وتكوينه على سبيل المجاز المرسل لأن العظام هي التي يتركب البدن منها وبها يظهر الطول والقصر.. ثم إن في ذكر العظام ومراده لحم الأعضاء فيه شئ من الأدب بل هو منتهى السمو بالأدب، إذ في ذكر أعضاء المرأة في هذا السياق النبوي. أشبه شئ بالإسفاف والسقوط، وحاشى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم أن يكون كذلك وقد أثنى عليه خالقه(٣٩) بقوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾.

رابعًا: ضرب حجاب من اللغة على ما يمكن أن يثيره الذهن من صور رخيصة: فلفظة: أعضاء تحت ثوب أبيض شفاف تُنبّه إلى صور ذهنية كثيرة سافرة.

أما لفظه: «عظام» فهي لفظة طبيعية مبرأة من كل نزعة لا تقبل أن تلتوي ولا تثير معنى فيه شئ من الرفث، ولا تحمل غرضًا، إذ تكون في الحي والميت، بل هي بهذا أخص، وفي الجميل والقبيح، بل هي هنا أليق، وفي الشباب والهرم، بل هي في هذا أوضح، وعلى كل فلفظة «عظامها» تؤدي الغرض المقصود؛ لأنه لا قيام للأعضاء إلا بالعظام(٤٠). يضاف إلى هذا أن في التعبير بالعظام مبالغة رائعة في التحذير من لبس الثوب الذي يمكن من رؤية عظام لابسه.

ويرى الشريف الرضى في كتابه «المجازات النبوية» أن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم أول من نطق بهذه العبارة وإن الذين استعملوها أو معناها بعده إنما سلكوا نهجه وترسموا طريقه ومن ذلك قول عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: «إياكم والقباطي فإنها إلّا تشف تصف»(٤١).

قوله: «هدنة على دخن، وجماعة على أقذاء»(٤٢)

الهدنة هي: الصلح والموادعة وقد ضرب الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم هذا المثل للقوم الذين بينهم من الفساد الباطن تحت الصلاح الظاهر، ففيه استعارة تمثيلية حيث شبه الهدنة التي تؤذن بالفتنة، والسلم الذي يبطن وراءه الحرب بالدخان الذي يؤذن بالنار الموقدة وروى الشريف الرضي أنه «يجوز أن يكون المراد بالدخن هاهنا قسطل الحرب - أي «غبارها» لأنه يشبه بالدخان في الحقيقة فكأنه عليه الصلاة والسلام قال: «هدنة تنكشف عن رهج الصراع وغبار المصاع»(٤٣).

ثم إن هذه العبارة فيها تصوير لمعنى الفساد الذي تنطوي عليه القلوب الغادرة لا يماثلها كلام في معناها فإن فيها لونا من التصوير البياني لو أذيبت له اللغة كلها ما وفَّت به وذلك أن الصلح إنما يكون موادعة ولينا وبعدًا عن الحرب وامتناعًا عن الأذى وهذه الأمور كلها تكون من عواطف القلوب الرحيمة فإذا بنى الصلح على الفساد وكان لسبب من الأسباب غلب ذلك على القلوب فأفسدها وعطل المقصود من الصلح والموادعة فلا تجد النفوس الراحة المبتغاة ويظل الجمر متوقدًا تحت الرماد يوشك أن يكون له ثورة وضرام، كما يغلب الدَّخَن على الطعام فلا يجد أكله إلا رائحة هذا الدخان يطعمه ولا يكاد يسيغه وما ذلك إلا لفساد الطعام »(٤٤).

* أما السر البلاغي من وراء التعبير بـ « دخن ».

فإن الصلح لا يكون إلا أن تطفأ نيران الحرب، وإلا أن تضع الحرب أوزارها، وهذا الصلح المبني على المناورة والغدر إطفاء تلك النيران بما سوف يكون فيها نار أخرى، وبذلك ينطبق عليه قول القائل:

أرى تحت الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون له ضرام

ويصبح ذلك الصبح الذي ألقي على النيران التي ما زالت تتوقد شبيها بإلقاء الحطب على النار فهي تخبو به قليلا ثم يستوقد فيستعر فإذا هي نار تتلظى.

ثم إن هذه الكلمة تشير إلى اللون المظلم الذي تنضبع به النية السوداء لدى هذا الطرف الذي يضمر غير ما يقول ويظهر(٤٥).

أما قوله: «وجماعة على أقذاء» ففيه استعارة حيث شبه صلى الله عليه وآله وسلّم الاجتماع على فساد الشكوك وتفكك القلوب بالحقد الدفين، بالعين المغضية على الداء، المغمضة على الأقذاء فالظاهر سليم، والباطن سقيم»(٤٦).

والاستعارة هنا تمثيلية هيئة بهيئة.

قوله: «الآن حمى الوطيس»

معناه اشتدت الحرب، شبهها بالوطيس أي الموقد وحميه واستعاره واشتداد ناره، وهم يقولون يصطلي بنار الحرب أي بنارها ويصطلي بحرها أي: أن الحرب قد بلغت أقصى غايات الشدة والضراوة، وكأنما هي نار قد شبت فهي تدمر وتحرق ما أمامها، وهذا المثل كما يقول الأصمعي: «لم يسمع من أحد قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلّم، وهو من فصيح الكلام عبر به عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق»(٤٧).

والمثل من قبيل الاستعارة التصريحية قال الرضي: «يعني حَمَسَ الحرب وعظم الخطب، لأن الوطيس في كلامهم حفيرة تحتفر فيوقد فيها النار للاستواء... ولا وطيس هناك على الحقيقة... وإنما المراد ما ذكرنا من حر القراع وشدة المصاع والتفاف الأبطال واختلاط الرجال... وتشبيه الحرب بالنار يكون من وجهين:

أحدهما: كحر مواقع السيوف، وكرب ملابس الدروع وحمي المعترك. لشدة العراك وكثرة الحركات.

والوجه الآخر: أن يكون إنما شبهت بالنار لأنها تأكل رجالها وتفني أبطالها كما تأكل النار شعلها وتحرق حطبها»(٤٨). وهذا

تفسير لوجه الشبه فكما أن الحرب تفني المتقاتلين فالنار كذلك تفني حطبها وكل ما تأتي عليه.

قوله: «مات حتف أنفه»

الحتف: الموت، يقال: مات حتف أنفه أي: على فراشه من غير قتل ولا ضرب ولا غرق ولا حرق، وإنما خص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نَفَسه، لأن الميت على فراشه من غير قتل يتنفس حتى ينقضي رمقه، فخصّ الأنف بذلك لأن من جهته ينقضي الرَّمق(٤٩).

وذكر مصطفى الرافعي - رحمه الله - في بيان هذا المثل: «أن موت الرجل على فراشه من غير حرب ولا قتال، ولا أمر يؤرخ به الموت في الألسنة مما كانوا يأنفون له، والحتف هو الهلاك فكأن صاحب هذه الميتة إنما ماتت أنفته وكبرياؤه، فلم يرفع الموت أنفه في القوم، بل أذله وأرغمه فكان به هلاكه لأن حياته كانت في عزته، وعزته كانت في أنفه، وأنفه هو الذي كبه للموت وإنما مجاز العبارة كما يقال في الكبر: ورم أنفه، وفي العزة: حمى أنفه»(٥٠).

قوله: «لا تنتطح فيه عنزان»

معناه: أن هذا الأمر أمر هين لا يختلف فيه عاقلان أي لا يستحق الخلاف، جعل انتطاح العنزين مثلًا وصورة تمثل الخلاف على الأمر اليسير ويقولون في ضده ينتطح فيه كبشان أي أمر جدير بالخلاف، وفي التعبير كناية عن اليسر والخفة.

* * *

من جوامع كلمه
صلى الله عليه وآله وسلّم

* المؤمن مرآة أخيه

قال الشريف الرضي في شرح الحديث: «المراد أن المؤمن الناصح لأخيه يبصره مواقع رشده ويطلعه على خفايا عيبه، فيكون كالمرآة له ينظر فيها محاسنه فيستحسنها، ويزداد منها، ويرى مساويه فيستقبحها وينصرف عنها»(٥١).

والواقع أن أفضل ما يطلع الإنسان على محاسنه وعيوبه هو المرآة، فقد تكون في غاية الصفاء فتبين كل دقيق وجليل وقد تكون خلاف ذلك فتوضح شيئًا دون شئ، وهكذا حال المؤمن حين يكمل إيمانه، وتخلص سريرته لأخيه كأنّه مرآة صافية وإن شاب إيمانه شائبة أخفى وأظهر(٥٢).

يقول الإمام عبد القاهر: «ليس على إثباته مرآة من حيث الجسم الصقيل لكن من حيث الشبه المعقول، وهو كونها سببًا للعلن بما لولاها، لو يعلم لأن ذلك العلم طريقه الرؤية، ولا سبيل إلى أن يرى الإنسان وجهه إلا بالمرآة، وما جرى مجراها من الأجسام الصقيلة، فقد جمع بين المؤمن والمرآة في صفة معقولة، وهي أن المؤمن ينصح أخاه ويريه الحسن من القبيح كما ترى المرآة الناظر فيها ما يكون بوجهه من الحسن وخلافه»(٥٣). ويتضمن هذا التشبيه البليغ كناية لطيفة عن سرية لنصح وخفائه.

* أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك

يُعد هذا الحديث من جوامع كلمه صلى الله عليه وآله وسلّم، وقوله: «كأنك تراه» معناه أن يستحضر الإنسان ربه عند طاعته وعبادته استحضارًا كاملًا في عقله ووجدانه ووعيه، بحيث لا يزاحمه ولا يشغله شئ فيقبل في عبادته، الإقبال كله، ويبلغ في هذا الاستحضار والخشوع والإقبال مبلغًا إلى درجة، لو كان الله يُرى سبحانه لرآه فيها.

وأما قوله: «فإنه لم تكن تراه» كذلك أي مثل تلك الرؤية المعنوية فكن بحيث إنه يراك أي كن عالمًا متيقظًا، لا ساهيًا غافلًا، ومجدًا في مواقف العبودية مخلصًا فى نيّتك، فإن من علم أنّ له رقيبًا شاهدًا بحركاته وسكناته فلا يسئ الأدب طرفه عين ولا فلتة خاطر. وأنه يظل على حال يرضاها خالقه[٥٤].

وقد جعل الطيبي رحمه الله قوله: «كأنك تراه» إمّا مفعولًا مطلقًا أو حالًا من الفاعل، ثم قال: «والثاني أوجه، لأنه يحصل به للعابد حالات ثلاث، كما إذا قلت كأن زيدًا قائم، فتصورك حالات القعود والانتصاب، والقيام، فتشبيه حالة الانتصاب بالقيام ولأنك بإدخال «كأن» توهم أن له حالة غير القيام، وهي المشبه بالقيام كما إذا رأى الناظر شخصًا من بعيد فتردد بين قامه وقعوده ثم خيل له أنه إلى القيام أقرب، فقال كأنه قائم، وأن يشبه انتصابه بالقيام في الحديث للعبد بين يدي مولاه حالات ثلاث:

إحداها: حالة اشتغاله بالعبادة على سنن تسقط عنه القضاء، من حفظ شرائطها وأركانها وهيئاتها؛ وحالة تمكنه من الإخلاص في

القصد وأنه بمرأى من مولاه وهو مراقب لحركاته وسكناته؛ وحالة مشاهدته، واستغراقه في بحار المكاشفة، وإليه لمح قوله: «عليه الصلاة والسلام»: «جعل قرة عيني في الصلاة»، و «أرحنا بها يا بلال»، فتشبه الحالة الثانية، التي هي المراقبة بحالة المكاشفة التي هي من خواص النبي صلى الله عليه وآله وسلّم في الدنيا، ووجه الشبه حصول الاستلذاذ بالطاعة، والراحة بالعبادة، وانْسداد مسالك الالتفات إلى الغير، باستيلاء أنوار الكشف عليه، وهو ثمرة امتلاء القلب من المحبوب واشتغال السر به..

فقوله: «فإن لم تكن تراه» تنزل من مقام المكاشفة إلى مقام المراقبة، فينبغي أن تقدر: فاعلم قولي: إنه يراك»(٥٥).

* * *

د: دخيل الله محمد الصحفي

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

هوامش البحث

(١) البيان والتبيين ج٢/ ١٦- ١٨ تحقيق عبد السلام هارون .

(٢) انظر خطب الرسول جمعها وتبويبها ودراستها . د . عمر القطيطي/ ٨٢.

(٣) انظر بلاغة الرسول . د. علي محمد حسن العماري/ ٥٠.

(٤) انظر بلاغة الرسول . د. علي محمد حسن العماري / ٥١.

(٥) إعجاز القرآن للرافعي / ٣٣٩.

(٦) عبقرية محمد / ٢١.

(٧) إعجاز القرآن للرافعي ٢٩١/ ٢٩٢ .

(٨) ص/ ٨٦ .

(٩) الصناعتين/ ٥٥ .

(١٠) السنة بيانًا للقرآن/ ٧٧ .

(١١) القيامة (١٦) .

(١٢) أسرار البلاغة / ٨ .

(١٣) انظر الصناعتين: ٣٧- ٣٩.

(١٤) النساء (٦٣) .

(١٥) تفسير المنار ٥/ ٢٣١ .

(١٦) إعجاز القرآن للرافعي/ ٣٣٤ .

(١٧) السنة بيانًا للقرآن/ ٧٥، ٧٦ .

(١٨) السنة بيانًا للقرآن/ ٧٨ .

(١٩) اللسان : مادة (زلل) .

(٢٠) مريم (٩٧) .

(٢١) انظر تفسير الألوسي ٨/ ١٧٦ .

(٢٢) فاطر الآيات (١٠، ٢٩) .

(٢٣) مختصر مسلم ، كتاب صفة القيامة ، رقم الحديث ١٩٥٢ .

(٢٤) صحيح البخاري ، بشرح فتح الباري ١/ ٤٦٤ .

(٢٥) صحيح مسلم ، ٣/ ١٥٥، ١٥٦ .

(٢٦) دلالات التراكيب . د . محمد أبو موسى ص ١٦ ص١ .

(٢٧) شرح الطيبي ١٠/ ٩٢ .

(٢٨) انظر البيان والتبيين ٢/ ١٦ .

(٢٩) طبقات الشعراء لابن المعتز : ٤٠٤، ٤٠٥ .

(٣٠) الأغاني : ٤/ ٩٨ .

(٣١) الموازنة للآمدي / ٣٩٨ .

(٣٢) انظر شرح الطيبي : ٩/ ٢٢٢ .

(٣٣) انظر شرح الطيبي لمشكاة المصابيح : ٩/ ٢٢٣ .

(٣٤) شرح الطيبي على المشكاة : ٩/ ٢٢٣- ٢٢٤ .

(٣٥) التحرير والتحبير / ٤٧٤ .

(٣٦) سنن أبي داود في كتاب الجهاد حديث رقم/ ٢٥٦٠ .

(٣٧) شرح القصائد السبع الطوال الجاهلية لابن الأنباري ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، ط/ ٥، ص٣٤٢- ٣٤٣ .

(٣٨) انظر الحديث النبوي من الوجهة البلاغية : د . عز الدين/ ٢١٩ .

(٣٩) صور من البيان العربي د . إبراهيم الجعلي / ٤٧ .

(٤٠) المرجع السابق / ٤٧، وانظر : وحي القلم للرافعي ٣/ ٢١ .

(٤١) المجازات النبوية ص ١٦٦ .

(٤٢) مسند الإمام أحمد ٥/ ٣٨٦ رقم ٢٣٣٣٠ .

(٤٣) المجازات النبوية ٢٤٨ .

(٤٤) انظر : إعجاز القرآن للرافعى ، ص ٢٢٩، وانظر : صور من البيان العربي ، ص ٤٦ .

(٤٥) إعجاز القرآن للرافعي ٢٢٨/ ٢٢٩ .

(٤٦) المجازات النبوية / ١٦٥ .

(٤٧) شرح الطيبي ١١/ ١١٨ .

(٤٨) المجازات النبوية / ٤٦، ٤٧ .

(٤٩) حاشية على شرح بانت سعاد للبغدادي ٢/ ٣٨٩ .

(٥٠) إعجاز القرآن للرافعي / ٣١٥ .

(*) لم أعثر على تخريج الحديث في مكانه ، وإنما وجدت البغدادي في كتابه « حاشية على شرح بانت سعاد لابن هشام » يقول : « في حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلّم :

« من خرج مجاهدًا في سبيل اللّه فإن أصابته حائجة أو لسعته دابة فمات فهو شهيد ، ومن مات حتف أنفه فقد وقع أجره على اللّه ، ومن قتل قعصًا فقد استوجب المآرب » قال عبد اللّه بن عتيك راوي الحديث : واللّه إنها لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلّم » .

(٥١) المجازات النبوية/ ٧٩ .

(٥٢) انظر بلاغة الرسول ، د . علي العماري/ ٥٣ .

(٥٣) أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني/ ٢٧٤ .

(٥٤) انظر السنة بيانًا للقرآن/ ٨٩ .

(٥٥) شرح الطيبي على المشكاة ١/ ١٠٤ .

أهم مراجع البحث

١- **أسرار البلاغة** : لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق الشيخ محمود شاكر ، مطبعة الخانجي .

٢- **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** : مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي - بيروت ، لبنان .

٣- **الأغاني** : تأليف أبي الفرج الأصبهاني علي بن الحسين منصور عن دار الكتب وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

٤- **البيان والتبيين** : تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي بمصر .

٥- **تفسير القرآن الحكيم** : الشهير بتفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، دار المعرفة - بيروت ، لبنان ، ١٤١٤هـ .

٦- **حاشية على شرح بانت سعاد لابن هشام** : د . عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق نظيف محرم خواجه ، راجعه ودققه محمد الحجيري ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ، يطلب من دار النشر فرانز شتايز فيسبادنز

٧- **الحديث النبوي من الوجهه البلاغية** : د . عز الدين السيد ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٣م .

٨- **خطب الرسول جمعها وتبويبها ودراستها** : د . عمر القطيطي ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م ، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ، تونس .

٩- **دلالات التراكيب** : د . محمد محمد أبو موسى ، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ ، مكتبة وهبة .

١٠- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** : لشهاب الدين السيد محمد الألوسي البغدادي ، ط١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، دار الفكر ، بيروت .

١١- **السنة بيانًا للقرآن** : د . إبراهيم محمد عبد الله الخولي ، إصدار الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٩٣م.

١٢- **شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بالكاشف عن حقائق السنن** : الإمام الكبير شرف الدين حسين بن محمد بن عبد الله الطيبي ، حقق نصوصه : المغني عبد الغفار محب الله ، نعيم أشرف شبير أحمد ، بديع السيد اللحام ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ من منشورات إدارة القرآن والعلوم الإسلامية - كراتشي ، باكستان .

١٣- **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات** : لابن الأنباري ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة .

١٤- **الصناعتين الكتابة والشعر** : لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري ، تحقيق الدكتور مفيد قميحة ، الطبعة الأولى ١٩٨١م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٥- **صور من البيان العربي في ضوء التطبيق البلاغي** : تأليف الدكتور إبراهيم طه أحمد الجعلي ، الطبعة الأولى ، مطبعة الحسين الإسلامية ، القاهرة ١٤١٣هـ .

١٦- **طبقات الشعراء لابن المعتز** : تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، الطبعة الرابعة ، بدون تاريخ ، دار المعارف .

١٧- **عبقرية محمد** : عباس محمود العقاد ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت .

١٨- **لسان العرب** : لابن منظور ، دار المعارف .

١٩- **المجازات النبوية** : الشريف الرضي ، تحقيق الدكتور طه محمد الزيني - الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع .

٢٠- **من بلاغة الرسول** : دكتور علي محمد حسن العماري ، ط١٩٨٠م ، دار الأنصار بالقاهرة .

٢١- **الموازنة للأمدي** : تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان ١٣٦٣هـ .

٢٢- **وحي القلم** : مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

* * *